

السياق وبناء المعنى

"مقاربة تداولية للمقامة الأهوازية"

أ. رحيمية شيتة *

يقوم التخاطب الإنساني على عمليات دقيقة ومعقدة، يتقاسم الأدوار فيها كل من المتكلم، المستمع، البنية النصية والسياق؛ فالقائل يحتاج التلطف بهذه الجملة أو تلك وفق مقاصده التواصلية، خاضعا لبنية معينة، والمستمع يؤول الأقوال بحسب السياقات الواردة فيها، ويكون نجاح التواصل رهن بما يتبادلته كل من القائل والمخاطب من اعتقادات ورغبات ومقاصد.

ولكن يحدث أن نصادف في حياتنا أنواعا من الخطابات، تتجاوز اللغة العادية، وتأخذ مقاصد المتكلم ورغباته حضورا ضابابيا، يصعب الوقوف عليها، وبالتالي تتضاءل فرصة الاشتراك بين الأطراف الحوارية في المقاصد، ومع ذلك تأخذ هذه الخطابات حيزا كبيرا من التواصل البشري.

ويكون نجاح التواصل بهذه الخطابات، مرهونا بثنائية الإقناع والامتاع، ولكن الوصول إلى تحقيق هذا محفوف بإشكالية أرقت المشتغلين بالحقل الأدبي، مفادها: كيف نصل إلى فك رموز هذه الخطابات لنحقق المتعة المؤسسة على الاقتناع؟

في هذا الصدد، تظهر التداولية كمنهج نصاني يهدف إلى تناول النصوص، انطلاقا من البنية اللغوية موليا أهمية خاصة للعوامل المقامية، والأحوال السياقية، مانحا دورا خاصا لكل من المتكلم (المبدع)، والمستمع (المتلقي)، في صناعة المعنى.

ويشير المهتمون بهذا الحقل اللساني، أن مزية التداولية والتي غيببت فيما سبق من نظريات ومناهج نقدية ولسانية، هي الانفتاح على مختلف العلوم الإنسانية، فهي تمتح من علم الاجتماع، علم الإناسة، علم النفس،...

هذا الانفتاح جعل التداولية تداوليات، وقد أشارت فرنسواز أرمينكو إلى ثلاث درجات من التداولية هي: «تداولية الدرجة الأولى: وهي دراسة الرموز الإشارية، ولها سياق خاص هو السياق الوجودي والإحالي. تداولية الدرجة الثانية: وهي دراسة طريقة تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها في الحالات العامة، ولها سياق؛ إنه السياق الذهني، بل السياق المترجم إلى تحديدات العوالم الممكنة.

* - أستاذة، جامعة بسكرة، الجزائر.

تداولية الدرجة الثالثة: وهي نظرية أفعال اللغة، والسياق هو الذي يحدد فيما إذا تم التلفظ الجاد أو الدعابة « (1).

وعليه، تعد التداولية علم الاستعمال اللساني ضمن السياق، وبتوسع أكثر هي استعمال العلامات ضمن السياق، «وتدفع أهمية هذا المفهوم بماكس بلاك إلى إعادة تسمية التداولية بالنظرية السياقية» (2). وإن كانت التداولية بهذا الكيف، تمنحنا فرصة استغلال السياق الذي أهمل من الدراسات البنوية، فإن الإشكال المطروح: أين يبدأ السياق، وأين ينتهي وما هي علاماته؟

في هذا الصدد يظهر تحديد محمد خطابي وتناوله لمفهوم السياق، انطلاقاً من النصوص القديمة، «إذا نظرنا إلى النصوص الشعرية العربية القديمة، وخاصة في المؤلفات التي تتخذ لها الشعر موضوعاً وجدنا أنها لا تروي النص معزولاً عن محيط إنتاجه، بل تضع كل نص، مقطوعة كان أم قصيدة، في سياقه حتى إن النصوص تبدو أحداثاً تؤرخ لأحداث (...)، تقدم النصوص الشعرية، كمسببات حركتها أسباب مختلفة (...)، الشخص الذي يروي القصيدة يفيدنا بزمان ومكان محددين وحدث وشخصيات معلومة (موثوقة)؛ بحيث يضع لكل قصيدة ملفاً يساعد على فهم الشعر القديم، ويمكن إعادة تركيب سياقه اعتماداً على معلومات خارجية يوفرها راويه أو شارحه» (3).

إن تحديد السياق بهذا الشكل، غالباً ما يجعلنا أمام قارئ محدد، قارئ في حاجة إلى هذه المحددات السياقية، غير أن ميزة النص الأدبي غالباً هي تجاوز هذه المحددات، وإعادة تشكيل السياق، فإذا اقتنعنا هذا البين مثلاً من قصيدة المتنبي:

وَرَأَيْتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءٌ فليسَ تَرُورُ إلاَّ في الظَّلامِ (4)

إننا لسنا في حاجة إلى الملف الذي يلحق بالقصيدة كاملة، وإنما يتشكل سياق جديد، يجعل متلقي النص يتحول إلى مالك ظرفي للبيت، خالفاً سياق جديداً للاستخدام، يتمشى مع ما يحمله البيت من معنى. وكثيرة هي الأبيات التي تعامل بهذا الشكل.

وبالتالي نتج من سياق القصيدة إلى توليد سياق للبيت، إضافة إلى هذا النمط من السياق، نجد نمطاً آخر، يتولد من النص ذاته، فالنص يزخر بمحددات زمانية ومكانية، تتحكم في تسيير الخطاب. واعتماداً على هذه العناصر، سيتم مقارنة المقامة الأهوازية مقارنة تداولية.

فالمقامات بدءاً بهذا العنوان الجامع، تحمل طابعاً سياقياً، والعناوين الجزئية والداخلية لا تختلف عن العنوان الرئيس؛ إذ ترتبط عادة بأخذ عناصر السياق، وغالباً ما يكون هذا العنصر هو العنصر المكاني (المقامة البغدادية، المقامة الأهوازية...)، أو تكون اللفظة التالية للمقامة لفظة مفتاحية تضع القارئ في سياق معين مثل: (المقامة الخمرية، المقامة المجاعية، المقامة...).

لقد ارتبطت المقامات بالمجالس وتنوعت غايتها بين التعلية والامتاعية، والحجاجية، كما ركزت على فكرة الحوار، ومراعاة التباين من مقام إلى مقام، وكذا رصد للأثر الناتج عن الحوار، وتتبع للأحداث اليومية (الكدية، الاحتياي...)، كل هذه عوامل تسوغ لنا المقارنة التداولية لهذا الفن.

ولما كان المنطلق الأساس في هذه الدراسة هو السياق *، فإننا نرصد ثلاث مستويات:

المستوى الأول:

المنكلم ← بديع الزمان الهمذاني.

المستمع ← الـوزيـر

الزمان والمكان محددان بفترة، هي العصر العباسي.

المستوى الثاني:

نجد في المقامات متكلما مجهول غالبا ما يحيل على متكلم محدد.



عيسى بن هشام شخصية افتراضية، عادة ما تسوق الأحداث متيحة الفرصة لتناسل أقطاب حوارية أخرى، غالبا ما يكون أبو الفتح الإسكندراني، شخصية خفية تصنع الحوار دون أن تكشف عن نفسها.

المستوى الثالث:

المتكلم ← بديع الزمان الهمذاني.

المستمع ← من تلق افتراضي مجهول الزمان والمكان.

يتم مقارنة النص، اعتمادا على رصد العناصر السياقية: (المتخاطبون، الزمان، المكان)، وكذا التغيير الطارئ على السياق النصي، وبالتالي نحصل على ثلاث محطات:

1- السياق حال المدخل (يشكل الهيئة الافتتاحية).

2- السياق حال البؤرة (العنصر الفاعل الذي يقاب صورة النص، أو ما يسمى نقطة الانعطاف التي تغير مسار النص).

3- السياق حال المخرج، هيئة النص الجديدة التي يؤول إليها.

النص:

المقامة الأهوازية:

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالأهواز في رفقة متى ما ترق العين فيهم تسهل. ليس فينا إلا أمرد بكر الآمال. أو مخطئة حسن الإقبال. مرجو الأيام والليالي فأفضنا في العشرة كيف نضع قواعدها. والأخوة كيف نحكم معاقدها والسورور في أي وقت نتقاضاه. والشرب في أي وقت نتعاطاه. والأنس كيف نتهاداه. وفانت الحظ كيف نتلافاه. والشراب من أين نحصله. والمجلس كيف نرتبه. فقال أحدنا: علي البيت والنزل وقال آخر: علي الشراب والنقل. ولما أجمعنا على المسير استقبلنا رجل في طمرين في يمينه عكازة. وعلى كتفه جنازة. فتطيرنا لما رأينا الجنازة وأعرضنا عنها صفحا. وطوبنا دونها كشحا. فصاح بنا صيحة كادت الأرض تنفطر. والنجوم تتكدر. وقال: لترنها صغرا ولتركبنا كرها وقسرا. ما لكم تتطيرون من مطية ركبها أسلافكم وسيركبها أخلافكم. وتتقذرون سريرا وطئه أبواؤكم. وسيطاه أبناؤكم. أما والله لتحملن على هذه العيدان إلى تلكم الديدان. ولتنتقلن بهذه الجياد. إلى تلكم الوهاد. ويحكم تتطيرون كأنكم مخيرون. وتكرهون كأنكم منزهون. هل تنفع هذه الطيرة يا فجرة. قال عيسى بن هشام: فلقد نقض ما عقدناه وأبطل ما كنا أردناه. فلما إليه وقلنا ما أوجنا إلى وعظك. وأعشقنا للفظك. ولو شئت لزدت. قال: إن وراءكم موارد أنتم واردوها. وقد سرتم إليها عشرين حجة:

وإن امرئ قد سار عشرين حجة إلى منهل من ورده لقريب

ومن فوقكم من يعلم من أسراركم. ولو شاء لهتك أستاركم. يعاملكم في الدنيا بحلم. ويقضي عليكم في الآخرة بعلم. فليكن الموت منكم على ذكر. لئلا تأتوا بنكر. فإنكم إذا استشعرتموه لم تجمحوا. ومتى ذكرتموه لم تمرحوا. وإن نسيتموه فهو ذاكركم. وإن نمت عنه فهو ثائركم. وإن كرهتموه فهو زائركم. قلنا: فما حاجتك قال: أطول من أن تحد وأكثر من أن تعد قلنا: فسانح الوقت. قال: رد فائت العمر. ودفع نازل الأمر. قلنا: ليس ذلك إلينا ولكن ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها. قال: لا حاجة لي فيها وإنما حاجتي بعد هذا أن تخدوا أكثر من أن تعوا (5).

التحليل:

1- حال المدخل: تمثله الجمل من (كنت بالأهواز... إلى قال آخر علي من الشراب والنقل).

1- الأشخاص: تتحدد انطلاقاً من عرض للجانب الجمالي المسجد في المظهر الخارجي: جماعة متى ما ترق العين فيهم تسهل، وكذا حداثة السن **، وعلامات عن الصورة الداخلية القائمة عن الطموح (كبر الآمال، مرجو الأيام)، يفضي هذا التصوير إلى تشكيل افتراض مسبق لدى القارئ، يرتبط بتعلق هذه الرفقة بالحياة، واستغرافها مستوى زمني يشمل الليل والنهار: (مرجو الأيام والليالي)، استكمالاً لهيئتهم تأتي العناصر الزمنية والمكانية، مستمدة من الحوار: (فأفضنا في العشرة كيف نصنع قواعدها، والأخوة كيف نحكم معاقدها)، ثم تبرز مجموعة من البنود تحدد:

زمن السرور ← زمن الشرب.

مكان السرور ← مكان الشرب والمجلس.

فكرة الشراب إذن فكرة مسيطرة على الجماعة، وفي هذا الإصرار، إيماء إلى تغييب الوعي، إذن حال المدخل تقابلنا مجموعة أطراف حوارية، تتناسل عنها مؤشرات زمنية ومكانية وفق المخطط الآتي:

الزمن
الزمن 1 الذي تمت فيه الأحداث والذي يستشف من مواصفات الفتیان: أمرد، بكر الآمال،...
الزمن 2 يحكم علاقة الفتیان ببعضهم واجتماعهم وهو يرتبط بممارسة جملة من الأفعال: السرور في أي وقت نتقاضاه. الشرب في أي زمن نتعاطاه.

المكان
مكان 1 تتم فيه الأحداث جملة في المستويات الثلاث (كنت بالأهواز).
مكان 2 الذي يخص حال المدخل، (الشراب من أين نحصله والمجلس كيف نرتبه).

ما يمكن أن يلاحظ عن الزمن 2 والمكان 2، أنهما في حدود الافتراض لا الحصول، ويرتبطان بالكلام لا الإنجاز، كما يرتبطان بتغيب الوعي.
إذن ينتهي حال المدخل بعزم على السرور واللهو.

سياق البؤرة النصية: (لما أجمعنا المسير استقبلنا رجل في طمرين... هل تتفع هذه الطيرة يا فجرة).

إضافة إلى العناصر التي أقامت الحوار سابقا، يظهر عنصر جديد (رجل في طمرين في يمينه عكازة وعلى كتفه جنازة).

يعرض هذا الطارئ عناصر مخالفة تماما، لما بدا من أمر الفتیان من حسن مظهر وحدائث سن وتعلق بالمسرات.

إن هذا الشخص الطارئ يتمثل نقبضا للفتیان ويحمل مواصفات لا تتماشى وسعيهم، الذي بدا حال المدخل، وهذا يقتضي رد فعل من الفتیان (تطيرنا وأعراضنا عنه صفحا).

إذن هناك رفض للأخر وسد لقنوات الحوار معه عن طريق التطير والإعراض.

بطبيعة الحال لا نخال الأطراف المحاوره تفرق عند هذا الحد، المظهر الخارجي للرجل الطارئ، لم يقم بعكس الواقع الحقيقي لهذا الوافد، من خلال صوته وتأثيره في الجماعة (صاح بنا صيحة كادت لها الأرض تنفطر والنجوم تتكرر)؛ إذن دخل الرجل في عملية حوارية مع الفتیان، بعد أن خلق مقومات لهذا الحوار من خلال الشكل الخارجي، الذي يشير إلى التقوى والورع، والذي ينغص سرورهم وما عزموا عليه من أمر، إذن الموقفان متباينان سعي إلى الدنيا وصورة تذكر بالأخرة، وكذا من خلال السلطان الذي فرضه على الفتیان حال سماع صيحته.

وبدأ في توضيح موقفه سالكا مسلكا حجاجيا عبر مراحل متعددة:

المرحلة الأولى: تتم عن طريق الرؤية (لترونها صغرا).

المرحلة الثانية: قسرية قهرية (لتركبنا قسرا).

إذن، بعد لفت الانتباه⁽⁶⁾ حول الرجل صورة الجنازة من طارئ يستدعي التطير إلى ملازم، وهذا ردة فعل على فعلهم، ليصرح في المرحلة الموالية (ما لكم تطيرون من مطية).

إن لفظة المطية تحيلنا على أداة النقل التي ذكرت سابقا (علي الشراب والنقل)، والتي ذكرت مرتبطة بتغيب الوعي، وملازمة للشرب، ويتم استخدامها هنا للقيام بوظيفة عكسية، وبالتالي تبرز الاستراتيجية الحجاجية التي اتبعها، والتي تنأسس على الانطلاق، مما كان مجلب متعة ليصبح محل تكدير.

وسيركها أخلافكم

ركبها أسلافكم

المستقبل المطلق

الماضي المطلق

لينتقل هذا الزمن إلى تحديد أدق وأقرب:

تتقدرون سريرا وطنه أبواؤكم وسيطاؤه أبناؤكم

ماضي قريب محدد مستقبل قريب محدد

السياق وبناء المعنى "مقارنة تداولية للمقامة الأهوازية"

وفي كل هذا الحاضر، تحصيل حاصل، لا يشكل استثناء فيما حصل للأسلاف، والآباء والأخلاف والأبناء. كما أن التعبير عن الموت ارتبط بمعان مستمدة من اللذة، الركوب والوطأ، ويختتم حديثه بصورة للموت والجماد:

(أما والله لتحملن على هذه العيدان إلى تلكم الديدان ولتتقلن بهذه الجياد إلى تلكم الوهاد).

وينتج هذا المخطط: عيدان ← ديدان. جياد ← وهاد.

جماد ← حي. حي ← جماد.

إذن يتوسط الحي جمادين.

إذن ما يمكن قوله عن البؤرة النصية، أنها قامت بتحويل عناصر السياق الوارد حال المدخل إلى

صورة جديدة وفق الشكل التالي:

المكان	الزمان	الأطراف المتخاطبة	حالة المدخل
الأهواز. منزل مبتغى لتحقيق اللذة.	زمن الشباب وزمن اللذة الناجبة عن الشرب.	فتيان (أمرد) بكر الأمل	حالة المدخل
إضافة إلى الأهواز يظهر مكان جديد هو القبور.	يخيم زمن الموت وإن لم يكن كأنا لحظة الحديث فهو يستغرق زمن ماضي وزمن آت والحاضر مندرج ضمنه.	الفتيان والرجل	البؤرة النصية

السياق حال المخرج:

(فلما نقض ما عقدناه وأبطل ما كنا أردناه... أن تخذوا أكثر من أن تعوا).

يكشف المخرج عن الأثر الذي خلفه السياق، والذي طرأ على الفتيان وخروجهم من التأهب إلى تعييب الوعي، عن طريق الشرب إلى الوعي ملتزمين بصورة من التأذب، ترصد الأثر الذي أحدثه خطاب الرجل، فقد جمعوا في مطلبهم المعرفي بين الحاجة الموصولة بالمحبة، مما يوحي بالانقلاب الجذري الحاصل في النص.

يختتم النص منتقلا من مخاطب بعينه (جماعة الفتيان)، إلى مخاطب منفتح على الزمان والمكان،

كاسرا السائد في المخيال الشعبي.

إِنَّ امْرَأً قَدْ سَارَ عَشْرِينَ حِجَّةً إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لِقَرِيْبٍ

ما نلاحظه عن المتخاطبين في السياق حال المخرج، هو الثبات (أي الفتيان والواعظ)، ولكن نلمس نموا غير مسبوق في النص للعنصر الحوارية المباشر بين الفتيان والواعظ في ختام النص (قال.. قلنا.. قال).

أما الزمان والمكان: فأول ما يسجل هو الارتداد بالزمن إلى السياق الأول، حيث حدثت السن المرتبطة باللهو، عن طريق التصريح بالزمن (سرتم إليها عشرين حجة). إن التحديد الزمني لا يقف عند الارتداد إلى زمن السياق الأول، إذ سرعان ما يوظف حدثت السن في الحديث عن الزمن الثاني؛ زمن الموت وملازمته (كما ورد في البيت الشعري المذكور أعلاه).

ويبدو من البيت أن الزمن السابق (عشرين حجة) كان فعلا مرتدا إلى زمن السياق القديم، إذ نجد الخبر سبق في شكل إنكاري، عن طريق أضرب التوكيد الواردة فيه. الخبر بهذا الشكل يتوافق مع الزمن الذي كان الفتيان يتأهبون للهو، خلافا لزمن سياق البؤرة النصية الذي تحول فيه موقف الفتيان إلى الاستكانة للطارئ (الواعظ).

بعد هذا يتم فصل الزمن مرتبطين مرة بالدنيا ومرة بالأخرة، عن طريق الموت، الذي يشكل فاصلا بين زمنين: ماض، ومستقبل مرتقب مؤسس على فعل الموت المنبثق عن الماضي، وفق التالي:

إذا استشعرتموه لم تجمحوا	} أ	إن نسيتموه	} ب	فهو ذاكركم
متى ذكرتموه لم تمرحوا		إن نمتم عنه		فهو ثائركم
		إن كرهتموه		فهو زائركم

في (أ)، نجد محددات زمنية "إذا"، "متى"، لم تقم بتحديد الزمن، بل بتوسيعه وربطه بالممكن والمفترض دوما، هذا الممكن والمفترض يقوم بتعطيل المبتغى من زمن السياق الأول (المرح واللهو)، (لم تجمحوا، لم تمرحوا).

في (ب)، نلمح تأكيدا على فاعلية زمن الموت، من خلال الصيغة التي ورد عليها، وهي صيغة (فاعل)، (ذاكركم، ثائركم، زائركم)، التي تومئ إلى الاستمرارية والثبات، خلافا للأفعال التي تنسب للفتيان (نسيتم، نمتم، كرهتم)، وهي أفعال إن جاز لنا هذا التعبير، غير فعالة وطائرة لارتباطها بـ "إن". بعد هذا، يطلعنا النص على حوار، الزمن قطب الرحي فيه: (قلنا فسانح الوقت قال: رد فانت العمر ودفع نازل الأمر)، ولو حللنا العبارتين نجدهما ترتدان إلى زمن السياق حال المدخل، وزمن السياق البؤرة النصية على الترتيب.

أما المكان، فنجد أن له محددات: موارد، منهل، قريب، وراعكم، وهي محددات لا تيسر لنا إعطاء صورة عن المكان بقدر ما تربط المكان بالزمان المتجلي في هذا السياق، وهو زمن الموت. ولا يفوتنا أن الزمن في السياق حال المدخل، كان مرتبطا بالارتباط نفسه بالمكان؛ إذ كان الزمن والمكان يومئان إلى تغييب الوعي.

الهوامش:

- 1- المقارنة التداولية، فرنسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الانتماء القومي، دط، دت، ص38.
- 2- نفسه، ص11.
- 3- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص 298-299.
- 4- ديوان أبو الطيب المتبني، دار صادر، بيروت، لبنان، ص484.
- *- نجد السياق يعرف من خلال عناصره، فهناك من يوسع عناصر السياق (المتكلم، المخاطب، المشاركون، الموضوع)، لتشمل القناة، المقام، السنن، جنس الرسالة، الحدث، وهناك من يضيقها لتشمل (المتخاطبون، الزمان، المكان، المقصد)، حسب تصنيف بروان ويول، أخذ هذا التصنيف من المرجع السابق، لسانيات النص، ص297.
- 5- المقامات، بديع الزمان الهمذاني، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 1988، ص85.

_____ السياق وبناء المعنى "مقاربة تداولية للمقامة الأهوازية"

** - يرى البعض أن الهيئة لا تحيل على السياق، لكننا نقصي السمات الأصلية من لون العينين، الشعر... ونبقي على السمات المستحدثة كاللباس، بوصفها مؤشرات تحيل على السياق، وتساهم في بنائه.

⁶ - من أكثر العقبات التي تواجه المقنع (لفت الانتباه وعدم النسيان)، بلاغة السؤال، عز الدين الخطابي، إدريس كثير، مجلة علامات في النقد، يونيو 1998، ص 79.

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.
جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر. 2009

<http://labreception.net>